جدلية الأنا والآخر في رواية "اعترافات تام سيتي 2039"

د . ملفوف صالح الدين

جامعة خميس مليانة

تعود بنا الدراسات الأولى التي اهتمت بمصطلحي الأنا والآخر إلى العصر الإغريقي، بدليل أن هذه الثنائية قد شغلت الذات الإنسانية بما فيها من غموض وتنوع عددا من المفكرين والفلاسفة اليونان [1] ، وشغلت حكماء الصين والهند في العصور الأولى، كما شغلت الفلاسفة العرب حتى غدت الأنا عندهم « كأنها تمفصل أنطولوجي – ابستمولوجي معا » [2]، ويعود سر هذا التناول المتأرجح ما بين الوجودي والمعرفي إلى طبيعة الثقافة العربية الإسلامية التي ما انفكت تبحث عن الأنا وتتعرف عليها وعلى طبيعتها من خلال وجودها وإدراكها المستمر بوصفها طفرة من طفرات تطور الذات الإنسانية بوجه عام، بالإضافة إلى رؤاها حول طبيعة النفس كمفهوم مقابل للأنا في الاصطلاح الفلسفي، ومن هنا أصبح مصطلح النفس الأكثر شيوعا واتساعا واستخداما من مصطلح الأنا في الفلسفة العربية [3] .

هذا الاهتمام المتزايد تواصل في نطاق الفلسفة حديثا، ففي نظرية المعرفة ترجم مصطلح الذات بالماهية، وهي « الخصائص الذاتية لموضوع معين وتقابل الوجود، ومنه التعبير الشائع: الوجود والماهية.» [4] ، كما كان للفلسفة الوجودية نصيبها في دراسة هذا المصطلح انطلاقا من أن السؤال عن الأنا هو سؤال عن الوجود، ويترتب عن هذه المسلمة أن الوجود « هو أولا وجودي أنا، أنا الذات المتفردة. ».

إن هذه المقولات الفلسفية المشار إليها آنفا قد عكست مفهوم الأنا من المنظورين المعرفي والوجودي، لكن وجودها هذا هو وجود في عالم ليس عالمها، أي أنها "موجودة في"، وقد ترتب عن هذا "الوجود في" أن صار من صفاتها الجوهرية أنها محاطة أو في حالة تعين مع الغير فليس ثمة ذات مفردة وحدها، ومنه نستنتج أن الآخر يأتي بمعنى صفة كل ما هو غير أنا، وفكرة الآخر بمعنى غير الأنا مقولة ابستمولوجية ملخصها الإقرار بوجود خارج الذات العارفة، أي كينونات موضوعية [6] .

يصنف أغلب النقاد والمفكرين جدلية الأنا والآخر في خانة القضايا ذات الأبعاد غير المتناهية والمتداخلة فيما بينها، فكثيرا ما يستعين الكاتب في سبيل البحث عن نفسه بالغيرية، فيلتبس الضميران في الخطاب الروائي نفسه ويشكلان كتلة واحدة مترامية الأطراف لا يحدها حد ولا يوثق وثاقها أحد، يقول الفيلسوف **موران إدغار** Morin Edgar: « الغير في الوقت نفسه الشبيه وغير الشبيه، شبيه بمعالمه الإنسانية أو الثقافية المشتركة، وغير الشبيه بفردياته الشخصية أو اختلافاته القبلية. الآخر يحمل فعلا في ذاته الغرابة والمشابهة. » [7].

إن الأنا في علاقته مع الغير قد يغترب عن ماضيه ليشابه عوالما كانت غير مألوفة عنده في بداية بحثه عن ماهيته، لأن حالة الغرابة ليست ثابتة كما يتصورها البعض، بل هي واجبة التطور، تقول **جوليا كريستيفا Kristeva Julia** في هذا الشأن: « ... لا أوافق ما أسميته "تناقض الغريب" والذي يعتمد على الاستقرار

في بلد جديد لكي نحسن تمجيد عبادة التوق والحنين إلى الوطن أو البلد السابق، والذي غادرناه من أجل عدم التفاهم إن لم تكن الكراهية... لا أظنني أراعي الغرابة كخاصية أو حقيقة غير قابلة للمس... كثيرا ما أؤكد على الاعتراف "بكينونة الغريب" لكن بعدم تجميدها في هذا الإطار بل بلمسها، قصد إخراجها من الاستقرار في حالة: ألم أو ضرر الكائنية...» [8] .

ومثلما أدلى الفلاسفة والنقاد بدلوهم في قضية الأنا والآخر، كان لعلماء النفس رأيهم كذلك، فبعدما قسم **سيغموند فرويد** – مثلا – الجهاز النفسي إلى ثلاث مناطق هي: الهو، والأنا، والأنا الأعلى، جعل الأنا تتوسط الهو والأنا الأعلى، لتشكل حلقة تواصل بين العالم الخارجي والمكبوتات الداخلية والغريزية، فـ « الأنا يقوم بنقل تأثير العالم الخارجي إلى الهو وما فيه من نزعات، محاولا أن يضع مبدأ الواقع محل مبدأ اللذة الذي يسيطر على الهو. » [9] .

وهناك من علماء النفس من يفرق بين الأنا والذات، **فيونغ** يراهما مركبين مستقلين، بل ويزيد من الهوة الفاصلة لتصبح المسافة التي تفصلهما « كالمسافة مثل ما بين الشمس والأرض... فالذات يمكن أن تعني ما يماثل تعويضا عن الاصطدام بين الخصائص الشخصية والمألوفات المجتمعية، نجده في الاشتباك الواقع بين العالم الداخلي والعالم الخارجي. » [10]، وهي لا تعبر بالضرورة عن الاختلاف بل يمكن أن تحيل على الائتلاف،« فالذات تحتضن النفس الواعية والنفس الجماعية، وتشكل بذلك شخصية أوسع، وتلك الشخصية هي النحن.» [11] .

إذا انتقلنا إلى علم الاجتماع ألفينا تعريف الأنا على أنها « فرد واع لهويته المستمرة ولارتباطه بالمحيط. » [12] ، ومع اتساع أبعاد الأنا يتكون وعيه الاجتماعي نتيجة شبكة العلاقات الاجتماعية التي « بدونها لا تستطيع الإنسانية أن تستمر، لا أخلاقيا ولا ماديا. » [13] . وينمو التماسك الاجتماعي تدريجيا بداية من الأسرة وانطلاقا من « علاقة الأم بأولادها، ونمط العيش السائد الذي وفرت به طعامهم، حيث تخلق حياة البيت قناعات مشتركة تتعلق بأفراد الأسرة وبعلاقاتهم التي يجب على من ينتمون إليها الإيمان بها، ويتعرض المخالف لها لنوع من العقاب، قد يصل إلى النفي. » [14] .

إن العلاقة الاجتماعية بين الأنا والآخر لا تحدد معالمها إلا باستيعاب الذات التي تتحقق ضمنيا من خلال التعامل مع الآخرين ومحاولة فهمهم، إلا أن التواجد سوية لا يعني التجمع مع أي فرد آخر، وإنما « بمن ترتبط معهم بأهداف ومصالح ومعتقدات ومفاهيم مشتركة في جماعة واحدة توفر لها عضويتها إشباع تلك الحاجات الاجتماعية، حيث تتضح هذه الحاجة في الرغبة في الحياة مع هذه الجماعة والتوافق معها وتقبل معاييرها وقيمها وأنماطها السلوكية. » [15] . وبغية تحقيق الاستقرار والسلم الاجتماعي بين الأنا والآخر لابد من « تقبل الغير والتقبل من الغير وحب الغير، والحب من الغير. » [16]، مع مراعاة عدم « الانحياز إلى ذاتية الفرد ولا إلى ذاتية الجماعة. » [17] .

لقد كان للأدباء – هم أيضا – رأيهم الخاص في قضية الأنا والآخر، فهاهو **شارل بون** مثلا يحدد الآخر على أساس " الاختلاف"، "الأنا" يعني الكاتب وموضوعي "الآخر" يحدده اختلافي أو اختلافاتي معه،

وبهذا فإن إقحام الغيرية في عتبة الاختلاف تنجر عنه مجموعة من الاختلافات لا تعد ولا تحصى، نذكر على رأسها: الاختلاف المكاني، والاختلاف الزماني، والاختلاف العقائدي أو الثقافي [18].

بعد هذه العجالة النظرية في دروب الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والأدب التي حاولنا من خلالها تسليط الضوء على المفاهيم المختلفة لمصطلحي الأنا والآخر، قمين بنا الإشارة إلى بعض الروايات العربية التي اتخذت من صراع الشرق والغرب موضوعا لها، فإذا عدنا إلى روايات القرن التاسع عشر ألفينا **محمد المويلحي** في عمله (حديث عيسى بن هشام) يصف الأنا بالتخلف والجهل، في مقابل الآخر الذي يصفه بالتقدم والرقي في شتى مناحي الحياة المدنية، ما عدا الأخلاق المتردية والفاسدة على عكس أخلاق الأنا الفاضلة. وها هو **سليم البستاني** ومن بعده **جرجي زيدان** يصفان الإرث الحضاري والتاريخي العربي بالعراقة الواجب المحافظة عليها ومعاملتها بإنسانية من قبل العثمانيين الذين يمثلون صورة الآخر الذي لا يضاهي تاريخه وحضارته حضارة العرب، وإن كانت هذه الرؤية مضمرة وتحمل في طياتها الكثير من الرموز والدلالات.

وإذا انتقلنا إلى الروايات العربية الأولى من القرن العشرين لاحظنا أن جدلية الأنا والآخر لا تعني بالضرورة أن الأنا عربية وأن الآخر غربي، ولكنها في المقابل تتخذ أشكالا وألوانا مختلفة، فهاهو **محمد حسين هيكل** في عمله (زينب) يرى أن الأنا يمثل الريف وأن الآخر يمثل المدينة، وهاهو **نجيب محفوظ** في روايته (الحرافيش) يصور الأنا في ساكن الحارة المركزية، والآخر هو ساكن الحارات المجاورة، وهاهو **توفيق عواد** في روايته (الرغيف) يمثل العربي بالأنا ويمثل العثماني بالآخر، وفي رواية (رامة والتنين) لمؤلفها **إدوارد الخراط** تتمثل هذه الجدلية في الديانتين الإسلامية والمسيحية.

بعد الخمسينات تبدأ مرحلة جديدة هي رحلة البحث عن الذات أو الذات المتأزمة التي تعاني في داخلها صراعات مختلفة، ففي خماسية الروائي **عبد الرحمن منيف** تتلاشى شخصية متعب الهدال التي تمثل أصالة المجتمع البدوي وهوية الأنا السعودية، لتستبدل بشخصيات سعودية انتهازية تشكلت تبعا للانتفاع الخاص من الشركات النفطية، وعندما يؤدي الحنين إلى الذات الأصلية دوره وتفكر الشخصية في الحياة البدوية الناصعة تأتي الأنانية لتجهض الفكرة التي تبقى مجرد أحلام وآمال ليس إلا.

وفي روايات الأسر السياسي يتقلب السعيد مهران في رواية **نجيب محفوظ** (اللص والكلاب) مثله مثل باقي شخصيات العمل مابين الجلاد والضحية، مشكلا تمزقا رهيبا للأنا وتشظيا واغترابا لا تفسره إلا أحداث الرواية. وهاهي **غادة السمان** ومثيلاتها من الروائيات العربيات تنقلن هذه الجدلية إلى صراع الرجل والمرأة بسبب قضية التحرير، فيجد القارئ نفسه أمام ذات عربية ممزقة بين الرجولة والأنوثة التي تفرز أكثر من أنا وأكثر من آخر.

بعد أن كانت هذه الجدلية تركز على صراع الأنا والآخر أضحت في الرواية الحديثة تركز على الأنوات – إن صح التعبير – أو أشكال الأنا المتصارعة مع ذاتها، وانتقلنا من ثنائية الوطني / الأجنبي إلى إشكالية الداخل، وكانت المسألة في الماضي محسومة لصالح الوطني على حساب الدخيل، بينما أصبحت في الرواية الحديثة معقدة وغامضة، وصارت متاهة تداخلت فيها الأفكار والأجناس، شأنها في ذلك شأن ما آلت إليه الحياة العربية في القرن العشرين.

تعد "اعترافات تام سيتي 2039" لمؤلفها **عز الدين ميهوبي** أول أعماله الروائية، ذلك أن الأديب قد عودنا على نظم الشعر لا كتابة النثر، وقد جاء هذا العمل الروائي في جزء أول اختار له عنوان (تين أمود) واختار للثاني عنوان (عين الزانة) ، وهذا الأخير هو صلب دراستنا في هذه الورقة البحثية، ذلك أنه يتناول حدثا تاريخيا مهما شهدته ثورتنا المظفرة ونقصد بذلك معركة "عين الزانة"، وما حصل بين الثوار الجزائريين الأشاوس وجنود الاحتلال الفرنسي تلك الليلة. وفي خضم ذلك، يتناول الأديب جدلية الأنا والآخر من منظور معكوس قلما أو نادرا ما عبر عنه الروائيون الجزائريون وفق ما ارتآه أديبنا في هذا العمل.

تتناول هذه المداخلة التي اخترنا لها عنوان: جدلية الأنا والآخر في رواية "اعترافات تام سيتي 2039" قضية شغلت مخيال عز الدين ميهوبي نتيجة صعوبة المرحلة التي عاشها الشعب الجزائري تحت سطوة الاحتلال الفرنسي، وعكسها الروائي بطريقة تجعل منها ظاهرة جديرة بالتوقف وتسليط الضوء، ألا وهي صراع الأنا المحلية والآخر الأجنبي الذي ارتبطت صورته بالمستعمر، وهذه القضية ليست بالجديدة على الروائيين الجزائريين، غير أن الفارق يكمن في المعالجة الفريدة لكاتبنا في هذا العمل، حين آثر استنطاق الآخر ومساءلته قصد افتكاك اعترافات صريحة وجريئة منه، وهذا ما تجسد من خلال زاوية نظر بطل الرواية **أنطوان مالو** أولا وباقي شخصيات هذا العمل ثانيا.

تقديم لرواية "اعترافات تام سيتي 2039" :

تطرق الروائي في الجزء الأول من هذا العمل إلى مجموعة من القضايا السياسية والاجتماعية والعرفية التي شغلت سكان تام سيتي (تمنراست) مابين 1998م و2039م، على رأسها أخبار النيزك المرتقب سقوطه. أما أهم أحداث هذا الجزء فهي أحداث الحكاية الغرامية التي جمعت بطل الرواية **صالح النازا بتين أمود**، ليختم الروائي روايته برأس سنة 2039م والحريق الذي شب في فندق أسكرام بالاس، وعثور البطل على دفتر مذكرات سائح هلك نتيجة الحريق.

يستهل الروائي جزءه الثاني من هذه الرواية بتصفح بطل الجزء الأول للمذكرات التي وجدها بعد حريق الفندق، ليكتشف أنها لسائح فرنسي يدعى **أنطوان مالو** يروي فيها – من جملة ما يروي – قصة والده المتوفي في حرب الجزائر، وهذا ما ورد في قوله: « ... توفي أبي جان بيار في حرب الجزائر، في معركة عين الزانة بمنطقة سوق أهراس، في 14 يوليو 1959...» [19]. وهذا الحدث هو بداية الأحداث التاريخية التي انبنى عليها معظم الجزء الثاني من هذا العمل، هذا الأخير الذي أعاد إلى الأذهان حرب الجزائر ومعاركها المختلفة، بما فيها معركة عين الزانة، وكيف أن هذا السائح قد قرر زيارة الجزائر بحثا عن قبر والده.

ينحدر أنطوان من عائلة عسكرية أبا عن جد وهذا ما تذكره الأم **كاترين** مع الكثير من الحقد: « جدك أوليفيي هو السبب.. كان عسكريا طول حياته، وعمل في الصحراء، يحب بزة الكاكي والنياشين، وهو من زرعها في ابنيه جان بيار وجول، الأول مات قتيلا والثاني يقضي حياته معطوبا بعد إصابة في انفجار لغم بمدغشقر.. جدك هو السبب. » [20]. لم يكن الجد يحفل كثيرا بانتقادات كاترين وكان يرد دوما باعتزاز: « جان بيار لم يمت غرقا في بحر أو بسبب السل والملاريا. مات من أجل فرنسا في يوم 14 يوليو المجيد، وهو يوم تذكره فيه الأمة الفرنسية بأكملها. » [21].

إن نظرة الآخر من خلال المقطعين السابقين تلخص التضارب الموجود حول ماضي فرنسا العسكري وسياساتها، فالأم كاترين تمثل المعارضة المطلقة بسبب ما جنته فرنسا من حرمان وبؤس لحق بالعائلات جراء إرسال أبنائها للحروب، وما عائلة ما لو إلا نموذج مصغر عن ذلك، في مقابل الجد أوليفيي الذي يمثل التأييد المطلق، ويرى في تضحيات الأبناء وموتهم عز فرنسا ومجدها. بيد أن هذا التأييد كثيرا ما كان يشوبه التحفظ والقسوة إلى حد الرفض والتجريم، فكثيرا ما كان الجد يردد على مسامع حفيده وهو يحمل صورة الجنرال **ديغول**:« كنت عظيما أيها الرجل.. وعندما تركت الجزائر لأولئك الفلاقة لم تعد تختلف عن الماريشال بيتان.. صحيح للعظمة وجهها الآخر، هو الخيانة. » [22].

إذن، خروج فرنسا من الجزائر بحسب الجد لم يكن بسبب الهزائم المتكررة على يد جيش التحرير الجزائري، ولكن كان تخليا من الجنرال ديغول وتنازلا منه بسبب سياسته الخاطئة، هذه السياسة التي صنفت في خانة الخيانة وشبهت بسقوط باريس في يد الألمان بعدما ساير الماريشال بيتان سياسة النازيين وأظهر ضعفا كبيرا في الحكم والتصرف في مصير الفرنسيين. تحيلنا هذه النظرة على عدم اعتراف الآخر ببطولات الأنا وتضحياته الجسام في سبيل استقلال الجزائر، كما تحيل أيضا على مدى تحسر الكثير من الفرنسيين على خروجهم من أرض الجزائر وافتقادهم لها.

سياسات ديغول العرجاء وأخطاؤه المتكررة – في نظر الفرنسيين – امتدت من المستعمرات التي تخلى عنها إلى عمق الأراضي الفرنسية، فقد لاحظ الولد مرارا قدوم عائلات جديدة إلى أميان دون أن يعرف السبب، و« كان الناس يستقبلونهم بجفاوة، وعندما تنتهي مراسيم اللقاء، ينزوي سكان أميان في المقاهي والحانات، ويشرعون في انتقاد الحكومة التي جلبت هؤلاء الذين يطلق عليهم "الأقدام السوداء". » [23] .

هكذا كانت نظرة الفرنسيين من أمثال أوليفيي إلى الأنا الفرنسي الذي ولد في الجزائر، نظرة كلها ترحيب ومراسيم احتفال في العلن، وانزواء وتحسر وانتقاد للحكومة جراء فتح ذراعيها للفرنسيين الذين لم يولدوا على أراضيها في السر، فإذا كان الحال كذلك مع هذه الفئة فكيف الحال مع من كان أحد والديه أو كلاهما لا يحمل الجنسية الفرنسية؟. هذا هو الوجه الآخر والحقيقي لفرنسا المساواة والأخوة والعدل، هذه هي فرنسا العميقة بكل ما تحمله من بغض وحقد وكراهية تشكلت جراء عقدة اسمها الجزائر، لم يسلم منها حتى من كان أصله فرنسيا لأنه جاء ومعه شيء من الجزائر.

فرنسا ليست كلها حقد وكراهية ناجمة عن الحب المفرط والوطنية الزائدة، فهاهو أنطوان يقول:« كنت أسمع من جدي كل مساء حديثا طويلا عن الوطنية وحب فرنسا، وبلغ به الأمر مرة أن قال لي: هل أريك شيئا مما كتبت في العام 1946 عندما كنت في جزر المارتينيك مكلفا بتدريب الدفعات الأولى من الجندرمة. وجاءني بمخطوط، فيه أشياء عجيبة كشفت لي عن الوجه الآخر لجدي، الكاتب المسرحي. » [24].

إن أول احتكاك غير مباشر بين الأنا والآخر كان من خلال الصندوق الذي سلمه الجد أوليفيي لحفيده أنطوان، هذا الصندوق الذي يحتوي على أوراق وصور ورسائل تلخص ذكريات الوالد في الجزائر حين كان عسكريا، وأول الرسائل مؤرخ في 23 سبتمبر 1953م يقول فيه صاحبها: « وصلنا يوم الخميس إلى ميناء

الجزائر، بعد أربعة أيام قضيناها في البحر قادمين من ميناء تولون. الطقس بارد جدا، والمدينة جميلة، وتشبه امرأة تفتح ذراعيها لاستقبال شخص تحبه. » [25].

ويواصل الوالد في عرض ما رآه من جمال هذه المدينة قائلا: « أخذونا إلى ثكنة الأميرالية الواقع قريبا من حي القصبة العتيق. هذا الحي الذي زرناه في اليوم الموالي، حيث الأزقة الضيقة الملتوية، الآخذة في صعود نحو الأعلى أو هبوط نحو البحر، وشدتني كثيرا تلك المباني المتكئ بعضها على بعض ولا يفصل بينها سوى أعمدة خشبية تمنحها نكهة معمارية مختلفة تماما.» [26] .

أما عن سكان هذا الحي فتغلب عليهم المحافظة والتدين، وهذا ما يؤكده المقطع التالي: « سكان القصبة ما زالوا محافظين على ملابسهم التركية العتيقة، والنساء كلهن مدثرات في قماش أبيض يغطي أجسادهن، ولا تظهر من وجوههن سوى العيون. وقبل مغادرتنا المكان سمعت صوتا يرتفع من مكان قريب، فأخبرنا مرافق لنا، وهو يهودي، أنه صوت المنادي للصلاة عند المسلمين مثل أجراس الكنيسة عندنا، إنما الفرق أن العرب يقولون كلاما أما نحن فنسمع النواقيس. وانتبهت إلى أن كثيرا منهم يحثون الخطى نحو بناء قريب. » [27] .

إن جمال هذه المدينة الأخاذ هو ما دفع الفرنسيين إلى التعلق بها أكثر فأكثر، حتى بلغ بهم الأمر إلى عدها جزءا لا يتجزأ منهم ومن تاريخهم، يقول الوالد: « ... استكشفت شيئا من المدينة التي دخلها دي بورمون قبل مائة وثلاثة وعشرين عاما. كانت مدينة جميلة، وأجمل ما فيها أن الفرنسيين صاروا يشعرون فيها أنها ملك لهم وجزء من تاريخهم... » [28] . نعم، مدينة جميلة تجعلك تشعر أنك منها وأنها منك، والأكثر من هذا أنك تضمها إلى خريطتك وماضيك فتصبح جزءا من تاريخك وجغرافيتك، فيمتزج الآخر بالأنا ويتداخل حد صعوبة الفصل بينهما، بل ويصير الآخر أنا ويصير الأنا آخر.

من حي القصبة العتيق ومبانيه الجميلة ينقلنا الوالد إلى بيئة مغايرة تماما، بعدما تم تقسيم الكتيبة إلى فصائل كان هو على رأس الفصيلة المتوجهة إلى متليلي التي يقول عنها: « أكتب لك من الصحراء... متليلي تختلف عن المدن الأخرى، أهلها أيضا يختلفون عن سكان الشمال. طيبون ولا يأمنون الأغراب... أقضي أيامي مع الكتابة، فهذه الصحراء الموحشة، وواحاتها، تدفع الإنسان إلى أن يكون شاعرا رغم أنفه. » [29] .

يعود بنا الابن أنطوان إلى فرنسا مصورا حوار الأنا والآخر من خلال الطالب الجزائري مصطفى الذي كان يدرس الموسيقى الكلاسيكية معه، هذا الجزائري الذي لم يكن من النوع الذي يندمج بسرعة كبيرة في كيانات أخرى، ولم يكن يحب الحديث عن فرنسا وتاريخها في الجزائر، ويتجنب كل إشارة إلى ذلك، وهذا ما يبينه المقطع الحواري التالي: « – أبي قتل في الجزائر وكان عسكريا..

– وأنا أيضا لي شقيقان سقطا شهيدين في الجزائر.. وليس في فرنسا.

– أمنيتي الوحيدة هي العثور على قبر أبي في منطقة سوق أهراس.

– لا أنصحك بأن تفكر في الأمر قبل ثلاثين أو أربعين عاما.. الدم لا يزال ساخنا.

– أعرف.. لكن لا ذنب لي فيما حدث.

– ذنبك أن لك أبا عبر البحر ليقتل جزائريين لم يعلنوا عليه الحرب.

– أعرف.. وأنا لا أريد أن أخوض معك في نقاش أخسره مسبقا.

– والحل أن تصبر طويلا..

– أعرف أيضا هذا الأمر.. وأعرف أنني لن أغير مجرى التاريخ.

– يكفي أن تغير اتفاقيات إيفيان جزءا من هذا التاريخ الذي بقدر ما يهرب منه حكام فرنسا يتواضع أمامه الجزائريون» [30] .

يحيلنا هذا المقطع الحواري على مجموعة من القضايا المتضاربة والشائكة بين الأنا والآخر تحيلنا على اختلاف زاوية النظر بينهما وعدم التقائهما قريبا، فالآخر فقد والدا عسكريا في الجزائر والأنا فقد شقيقين في الجزائر وليس في فرنسا للدلالة على أن المعتدي قضى نحبه في بلد ما كان له أن يكون فيه. ولأن الجراح لم تندمل بعد، فإن عثور الآخر على قبر والده في الجزائر يبقى مجرد أمنية أو حلم بعيد المنال ويبقى ذنبه أن له أبا عبر البحر ليقتل جزائريين لم يشنوا عليه الحرب. ثم كيف للأنا والآخر أن يجتمعا على كلمة واحدة يرى فيها الأنا حدثا تاريخيا بينما يسقطها الآخر من التاريخ ويعدها وصمة عار لا تستحق الذكر؟.

كيف للأنا والآخر أن يجتمعا عند نقطة التقاء واحدة في الوقت الذي تعد فيه ثورة 1954م الوسيلة المشروعة لنيل الحرية من منظور الأنا ويعدها الآخر تمردا على حد قول الوالد؟: «لا تصلنا أخبار التمرد الذي وقع في منطقة الأوراس، وجهات أخرى في الشمال. نسمع أخبارا تقول إن المتمردين من الجزائريين ينتمون إلى تنظيم مسلح اسمه FLN يتحركون ليلا يهاجمون الثكنات ومراكز الدرك والشرطة، ويعتدون على الفرنسيين. » [31] .

إن نظرة الإعجاب التي ارتسمت على الآخر جراء جمال الجزائر ، وشعور القلق جراء الحرب ما فتئت أن تلاشت واستبدلت بالنظرة النفعية واستنزاف خيرات هذا البلد، فالشيء الذي لفت انتباه الوالد وهو يشرف على حراسة آبار البترول التي تم اكتشافها في الصحراء «... أن الفرنسيين لم يعد يقلقهم أمر ما يحدث في الشمال من مناوشات بين المتمردين والسلطة الفرنسية، قدر تعلقهم باكتشاف البترول، وقد سمعت من قائد عسكري زارنا منذ أسبوع قوله "ما دام البترول موجودا فلتبق الحرب مائة عام"» [32] .

إن ثورة التحرير الجزائرية التي هندس لها خيرة أبناء هذا الوطن وجسدها الفلاح والإسكافي والمعلم وغيرهم من بسطاء هذا البلد ما كان لها إلا أن تنجح، وما كان لفرنسا إلا أن تذعن وتسلم بأن خروجها صار أمرا مقضيا أو عليها أن تضحي بأكثر من ذلك، غير أن ما ترتب عن خروجها من حزن وتأسف هو ما كان يقض مضجع الآخر ويحرمه من النوم، يقول الجد أوليفيي:« في الجزائر اقتنعت أن علينا أن نحفر كثيرا من القبور لنظل هناك إلى الأبد. إنك لا تعرف يا أنطوان، كيف قضيت تلك الليلة التي سمعت فيها أن فرنسا وقعت اتفاقا لوقف القتال مع إرهابيي ما يسمى بجبهة تحرير الجزائر. تمنيت لو لم أعش حتى هذا اليوم. كنت أبكي وحدي في غرفتي، وأقول، الأرض التي سال عليها دم القديس شارل دي فوكو وابني جان بيار لن نسلمها للقتلة، إنهم لا يعرفون معنى أن تمتلك شيئا ويصير جزءا منك ثم تتنازل عنه كما تتنازل الحسناء عن عذريتها لقاطع طريق. » [33] .

إن أول احتكاك مباشر جمع الآخر بالأنا كان من خلال الرسالة التي وصلت إلى أنطوان من رفيق والده **البشير** في المعركة التي قتل فيها بعين الزانة، وتوجيه الدعوة له لزيارته في مدينة فيرميني القريبة من سانت

إيتيان، فلبي أنطوان الدعوة، وهنا يعرض لنا البطل نظرة من نظرات الآخر المليئة بالحقد والكراهية لأناس لم تشفع لهم حتى خدمتهم وولاؤهم لفرنسا، « سألت عن شارع الورود والبيت رقم فدلتني سيدة مسنة عن المكان لكنها قالت لي: "إنه شارع لا يقيم به سوى العرب" ثم بصقت على الرصيف. » [34] .

يعرض الروائي من خلال المقطع الحواري التالي جدلية أخرى للأنا والآخر شائكة ومعقدة، « جاءني النادل، وهمس في أذني "أغلب هؤلاء من الحركة الذين حاربوا مع فرنسا ضد استقلال بلدهم". قلت له: تقصد أن هؤلاء كانوا يحاربون الفلاقة..

– تعرف الفلاقة إذن؟

– طبعا.

– أخي الأكبر كان منهم. في الجزائر يقولون عنه شهيد.

– وأبوك؟

– من الحركة.. منحته فرنسا وسام الشرف، لا أعرف إن كانت تقصد شرفها أم شرفه. أبي يقولون عنه في الجزائر خائن.

– وأنت؟

– كما ترى.. بين أخ شهيد وأب خائن، يقف أمامك ميلود "الزميقري".. هوايتي نصيحة الناس بأن ينسوا الثورة.

– تقصد ثورة الجزائر..

– لا.. أقصد الثورة الفرنسية.. فأنا ضائع بين ثورتين.» [35] .

ما أشبه الليلة بالبارحة، آخر ذنبه أن له أبا سافر إلى الجزائر لقتل الجزائريين، وأنا بين إيثار والده أن يقتل أبناء جلدته لتفضيله الآخر عليهم، وأخ وفي لذاته آثر قتل الفرنسيين والانتماء الصارخ لأبناء بلده، وبين هذا وذاك يعجز الإنسان الموضوعي عن تصنيف ميلود، أهو من الأنا أم من الآخر أم من الأنا الذي أصبح آخرا؟.

ولأن علاقة الأنا بالآخر أكثر تشابكا وتداخلا، يعرض الروائي علينا علاقة مسعود السطايفي بهذا الآخر، يقصد ليون كل ستة أشهر ليقضي فيها خمسة أيام يستذكر قتله محافظ الشرطة ريمون كاري سنة 1958م وكيف نجته اتفاقيات إيفيان من حكم الإعدام الصادر في حقه، «هو يأتي ليزور المكان الذي أطلق فيه الرصاص على ريمون كاري.. ثم يجلس طويلا قبالة السجن الذي كان نزيلا فيه. فيستعيد ذكريات فيها شيء من الألم والمرارة والفرح أيضا.

– فرح؟

– لأنه نفذ أمرا مقدسا. وقام بموقف شجاع.

– موقف؟

– هو نفذ أوامر جبهة التحرير، وحقق موقفا وطنيا. » 31 .

بين أسئلة أنطوان وأجوبة ميلود يظهر تباين الرؤى واختلاف المواقف، فما يبدو وكأنه جريمة قتل من منظور الآخر هو أمر مقدس وموقف شجاع من منظور الأنا، ولا يمكن للآخر استيعاب قداسة هذا الفعل

وشجاعته إلا إذا أصبح يفكر مثل الأنا ويؤمن بقضيته ومبادئه وحتى ديانته، لأن الأمر يعدو أن يكون صراع أفكار ورؤى فقط.

يواصل الروائي في عرض التقاء الأنا بالآخر من خلال التقاء البشير بأنطوان، غير أن الأنا هذه المرة قد تحول إلى آخر لمجموعة من الأسباب تبرز من خلال المقطع الحواري التالي: « – كان عمري ثمانية وعشرين عاما حين التحقت بالجيش الفرنسي، ولم أكن حينها واثقا مما يقوم به بعض الجزائريين..

– تقصد ما حدث في نوفمبر 1954؟

– لا يهم.. لم أكن من الذين اعتقدوا أن فرنسا ستخرج.

– وابنك؟

– سليمان لم يكن عمره يتجاوز السابعة عشرة حين التحق بهم ومات..

– تقصد استشهد..

– هم غرروا به ودفعوه إلى تنفيذ عملية ضد قابض بريد عنابة لكنهم أطلقوا عليه النار فمات..

– تقصد استشهد؟

– فزاد حنقي عليهم.

– من الفلاقة أم نحن؟

– حين دفنته أقسمت ألا ألتحق بهم ولو فتحوا لي أبواب الجنة..

– وهل الجنة في أيدي الفرنسيين؟

– وأقسمت ألا أعود إلى الجزائر ولو أعادوا لي سليمان.

– بالنسبة لي الله في السماء وفرنسا في الأرض. » [32] .

تظهر شخصية الأنا من خلال هذا المقطع الحواري مهتزة ومشككة في نفسها، فالبشير لم يكن متيقنا مما قام به آنذاك بعض من أبناء جلدته ضد الفرنسيين الذين ظنهم لن يخرجوا من الجزائر، كما أن استشهاد ابنه سليمان لا يراه كذلك وإنما موت بعد أن غرر به، وهنا زاد حقده على هؤلاء الذين أعلنوا الحرب على فرنسا وتخلص من ذاته نهائيا ليصبح آخر بكل المقاييس، فيبدي الولاء والطاعة التامتين لله في السماء ولفرنسا في الأرض. أما موقف أنطوان من البشير فيحيل على عدم استيعابه الجيد لموقف الأنا ومحاولة فهم الأمور مثلما تمثلها البشير دونما تفسير حقيقي لذلك، فعن موت ابن البشير يقول عنه استشهاد تبعا لما يؤمن به الأنا الحقيقي، ويحاول توجيه حنق البشير إلى فرنسا بسبب موت الابن لا إلى جبهة التحرير، وهنا تبدأ لعبة تبادل الأدوار فيصبح الآخر أنا ويصبح الأنا آخر.

لم تكن سمعة البشير في الجزائر جيدة بين أبناء وطنه بسبب انسلاخه عنهم وانتمائه إلى أعدائهم، وهذا ما يقر به البشير دون تردد مع إلقاء اللائمة على الجزائريين: «... كنت أعرف أنني منبوذ من الحدود إلى الحدود، إنما كنت أجد متعة فيما أقوم به، لأنني لم أقتنع يوما بخروج فرنسا، كنت أحب القوة، ولم أر القوة إلا في وجود فرنسا، لهذا اخترتها ولم أهتم لما يقول الناس أو أوصف بالخيانة. هم من خانوا أنفسهم، ألم تر كيف تقاتلوا

من أجل جيفة قبل وبعد 1962؟ ماذا فعل بعضهم ببعض؟ ألم يقتتلوا في السر بالأسلحة الكاتمة للصوت وأسلاك الكهرباء ويتباهوا في النهار بانتصار منحهم إياه الجنرال ديغول؟... » [33] .

إن اعتقاد البشير بعدم خروج فرنسا من أرض الجزائر لأنها الطرف الأقوى في المعادلة سرعان ما تبدد بهجوم الجزائريين في معركة عين الزانة، يقول البشير في هذا الشأن: «فرنسا التي كنت أراها قوية مهابة، صرت أنظر إليها وهي تختبئ تحت الأرض، فرارا من موت محتوم، تحمله مجموعة خارجة عن القانون، وتساءلت في لحظة عابرة، ألم أكن مخطئا حين اخترت جناح القوة؟. » [34] .

يختتم لقاء الأنا والآخر (البشير وأنطوان) بمقطع حواري هام ومؤثر لما يحمله من مدلولات وإيحاءات، فهذه الفئة التي آثرت إتباع فرنسا والتخلي عن جزائريتها أصبحت مهمشة ومعلقة بين الأنا والآخر، فهي ليست من الجزائريين بسبب صنيعها وليست من الفرنسيين الخالصين « شيء واحد أقوله لك أيها الرجل، لم يخطئ أبي عندما قال عنك إنك وفي..

– ربما يكون جان بيار صادقا أما فرنسا فأجزم أنها كاذبة.. كاذبة. فهذه الجزائر تعتبرنا خونة، وهذه فرنسا تقبلنا على مضض، إننا لا نختلف عن الأيتام..

– سينصفكم التاريخ..

– تاريخ من؟ إن عنيت تاريخ الجزائر فنحن خارجه.. وإذا أردت تاريخ فرنسا فهو مغلق في وجوهنا. نحن رقم مهمل في معادلة التاريخ.. » [35] .

يطالعنا الروائي بعد هذا اللقاء المباشر بين الأنا والآخر بمجموعة من الأسئلة التي طافت بخلد الآخر، وهي أسئلة تدور كلها حول حقيقة تخلي الأنا عن ذاتيته وتحوله إلى آخر، يقول عز الدين ميهوبي على لسان أنطوان: « كانت أسئلة كثيرة تتواتر في ذهني، هؤلاء الحركى لماذا اختاروا جناح فرنسا، أينقصهم الإيمان بأرضهم وشعبهم وتاريخهم، هم يعرفون أن فرنسا قدمت من وراء البحر لاحتلالهم والثأر من الداي حسين الذي حاول إذلال القنصل الفرنسي؟ أيحب البشير فرنسا فعلا أم أنه صار مكرها بفعل المنفى على حبها؟...» [36] .

إن لقاء البشير بأنطوان وتسليمه إياه كيسا يحوي على صور والده ورسائل هو ما شجع الآخر على الذهاب إلى الجزائر ، والبحث عن قبر والده المقتول في عين الزانة، وفي الطائرة يعرض لنا الآخر صورة فيها الكثير من دلالات الأنا وإيحاءاته: « وزعت علينا مضيفة الطائرة جريدة "المجاهد" ومجلة "ريفوليسيون أفريكان" ومن خلال تصفحي لهما فهمت أن هذا البلد صار مغلقا في وجوه أمثال جدي.. ولا يمكن لفرنسا أن تفكر في العودة إليه. وفهمت أيضا أن أمثال البشير سيموتون بعيدا عنه ولن يدخلوه ولو جاؤوا بالحلف الأطلسي. » [37] .

بوصول أنطوان أرض الجزائر كان له لقاء بأحد أبنائها، ونقصد سائق سيارة الأجرة مخلوف الذي أقله من مطار قسنطينة إلى سوق أهراس، وجرى بينهما حوار رسم فيه مخلوف لأنطوان الوجه الحقيقي لفرنسا إبان احتلالها للجزائر وما قامت به من جرائم في حق البشرية، فوالد السائق قد شارك في الثورة ضد المستعمر وألقي عليه القبض وحكم عليه بالإعدام: « إلا أن عدم تنفيذ الحكم ارتبط بتفجيرات رقان و"إن إيكر"، حيث فضلت السلطات الاستعمارية جعل من هم في وضع أبي، أي الذين هم محل حكم بالموت، حيوانات تجارب في "إن إيكر" القريبة من تامنراست، ودراسة نتائج التفجير من خلالهم. » [38] .

هذا الكلام أثر في نفسية أنطوان كثيرا وأعاد إلى ذهنه الكثير من التساؤلات حول حقيقة فرنسا وحقيقة ما كانت تخبر أبناءها به، وهذا ما استعرضه أنطوان وهو يتابع كلام مخلوف: «كنت أتابع مخلوف وهو يروي حكاية أبيه وتفجيرات " إن إيكر"، وأقول "لقد كذبوا علينا حين أوهمونا أن فرنسا لم تسئ للشعوب التي استعمرتها.. ألم يكن أبي جان بيار مجرد أداة لتنفيذ سياسة القتل والدمار؟. » [39] .

بعد رحلة دامت من قسنطينة إلى سوق أهراس كان الوصول إلى المبتغى، حين وقف أنطوان على قبر والده في المقبرة، وهنا كان الاعتراف الجريء المحمل بالسخط من أنطوان على فرنسا: «... أبي أنت الغريب في هذه البلاد التي ليست بلادك، وهذه الأرض التي دفنت بها وهي ليست لك، لكنها فرنسا التي غررت بك وأنت الشاعر الرقيق، فجعلتك تكتب شعرا في الليل وتطلق الرصاص في النهار على الناس الذين لم يأتوا إلى أمي–إن لمحاربتك .. سامحني يا أبي إن اعترفت أمامك... أنني كرهت البلد الذي جعل جدي خائنا وعمي جوليان معطوب حرب، وأنت دفين المنفى البعيد. أعترف أنكم جميعا خنتم مبادئ الثورة الفرنسية وجعلتم منا نابوليونات صغيرة، تحفر تاريخها بمخالب الدم. كل الذين قابلتهم وأنا آت إليك من قسنطينة إلى حيث تنام، لم يجرحوا قلبي أبدا، ولم يسألوني عنك وعن تاريخي، إنهم يستحقون الحياة فلماذا جئتم من بعيد لتنشروا بينهم الفجيعة، إنهم كالملائكة ليست لها مخالب... » [40] .

ويواصل أنطوان في سرد اعترافاته وهو جاثم على قبر والده: « أبي جئتك لأنك أحببتني كثيرا، ولكنك يا أبي كنت تحب فرنسا التي لم تمنحك الحق في الحياة، لأنك كما قال لي جدي في وصيته مجرد قبر إضافي لبقاء فرنسا، ولأن البشير الذي ظل وفيا لك كان خائنا مثل جدي وسينتهي بعيدا يلعنه تاريخ شعبه. أبي ليتني أقوى على حمل عظامك لتدفن في حديقة جدي، وترحل بعيدا عن هذه الأرض الغريبة عنك. إن لهذه الأرض أهلها فلماذا جئتها؟... » [41] .

ومثلما اعترف أنطوان أمام قبر والده بحقيقة ما يختلج صدره، اعترف البشير لأنطوان بعد استيقاظ الضمير فيه بحقيقة ما كان عليه، « هذه رسالة اعتراف. رسالة لا تحمل شيئا من عين الزانة ولا جان بيار. إنني على فراش الموت عاجز عن الكلام. ما جدوى الكلام حين يستيقظ فيك طائر الندم، وتطلع من دمك أشجار اليأس... كنت يا أنطوان وحشا لا يعرف غير الأذى، وشخصا ليس له من الآدمية غير اسمه... أنا كل ما يرمز للخيانة... ربما فهمت من جدك شيئا من الخيانة، لكنه أخفاها بتلك النياشين. إنها قاسية على القلب حين نمارسها. » [42] .

ويسدل عز الدين ميهوبي ستار روايته بآخر اعتراف على لسان أنطوان قائلا: « ماذا أقول وقد دونت كل ما عندي في هذا المخطوط الذي يحفظ سيرة عائلة مالو. لن أعترف منذ اليوم. أنطوان قال كلمته وسيمضي.. بقي أن يعترف الآخرون. سيعترفون، وسأكون شاهدا عليهم. » [43] . فهل سنجد فعلا سنة 2039 أو بعدها – بقليل أو كثير – أنطوان أو شخص يشبهه يعترف بجرأة أن فرنسا في الجزائر قد عذبت شعبا وقتلت أبناءه واستحلت خيراته؟ وأن نجد أنا كالبشير يقر بذنبه في حق أبناء شعبه؟ وهل ستتغير نظرة الأنا للآخر بعد كل هذا؟ أسئلة لن يجيب عنها إلا التاريخ...

الهوامش

1- ينظر . ميشيل فوكو . الإهتمام بالذات .: جورج أبو صالح . مركز الإنماء العربي . لبنان . د ط . 1992 . ص 32 – 33 .

2- والاس لابين، برت جرين. مفهوم الذات (أسسه النظرية والتطبيقية) . ترجمة: فوزي بهلول . المكتبة الأنجلو المصرية . مصر. د ط . 1979 . ص 08 .

3- ينظر . عباس يوسف الحداد . الأنا في الشعر الصوفي (ابن الفارض أنموذجا) . دار الحوار . سوريا . ط1 . 2005 . ص 199 .

4- المعجم الفلسفي . مجمع اللغة العربية . الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية . مصر . د ط . 1983 . ص 87 .

5- عبد الرحمن بدوي . دراسات في الفلسفة الوجودية . النهضة المصرية . مصر . ط2 . 1966 . ص 19 .

6-- ينظر . عبد الرحمن بدوي . موسوعة الفلسفة (مادة آخر) . ج1 . ص 13 .

7- Morin Edgar . La Méthode .France . édition seuil . Novembre 2001 . p 68 .

8- Kristeva Julia . Au risque de la pensée . France . Horizon groupe . Avril 2001 .

9 سيغموند فرويد . الأنا والهو . ترجمة: محمد عثمان نجاتي . دار الشروق . مصر . ط4 . 1982 ص 41 .

10- دافي ماري مادلين . معرفة الذات . ترجمة : نسيم نصر . منشورات عويدات . لبنان . 1983 . ص 150.

11- ك.غ.يونغ . جدلية الأنا واللاوعي . ترجمة: نبيل محسن . دار الحوار . سوريا . د ط . 1997 . ص.942

12- ميخائيل إبراهيم سعد . شخصيتي كيف أعرفها . دار الآفاق الجديدة . لبنان . ط3 . 1987 . ص 70 .

13- بول ريكور . فلسفة الإرادة . ترجمة: عدنان نجيب الدين . المركز الثقافي العربي . لبنان . د ط . 2003 . ص 51 .

14- علاء عبد الهادي . شعرية الهوية . مجلة عالم الفكر . الكويت . ع1 . 2007 . ص 292 .

15 ، 16- مريم سليمان . علم نفس التعلم . دار النهضة العربية . لبنان . ط1 . 2003 . ص 470 .

17- محمد التومي . المجتمع الإنساني في القرآن الكريم . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . ط2 . 1990 . ص 185 .

18- Bonn Charles . Le roman algérien de langue française . l'Harmattan . 1985 .

19- عز الدين ميهوبي. اعترافات تام سيتي 2039(عين الزانة). منشورات ثالة.الأبيار. الجزائر. 2008. ص08

20 ، 21- عز الدين ميهوبي . اعترافات تام سيتي (عين الزانة) . ص 09 .

22- المصدر نفسه . ص 10 .

23- عز الدين ميهوبي . اعترافات تام سيتي 2039 (عين الزانة) . ص 10 .

24- المصدر نفسه . ص 21 .

25- م نفسه . ص 27 .

26- عز الدين ميهوبي . اعترافات تام سيتي 2039 (عين الزانة) . ص 28 .

27، 28- المصدر نفسه . الصفحة نفسها .

29- م ن . ص 38 .

30- عز الدين ميهوبي . اعترافات تام سيتي 2039 (عين الزانة) . ص 42 .

31- عز الدين ميهوبي . اعترافات تام سيتي 2039 (عين الزانة) . ص 88

30- عز الدين ميهوبي . اعترافات تام سيتي 2039 (عين الزانة) . ص 93 .

33- المصدر نفسه . ص 95 .

34- عز الدين ميهوبي . اعترافات تام سيتي 2039 . ص 83 .

35- المصدر نفسه . ص 85 .

36- م ن . ص 123 .

37-- عز الدين ميهوبي . اعترافات تام سيتي 2039 (عين الزانة) . ص 129 .

38- المصدر نفسه . ص 133 .
39- م ن . ص 169 .
40- عز الدين ميهوبي . اعترافات تام سيتي 2039 (عين الزانة) . ص 180 .
41- المصدر نفسه . ص 180- 181 .
42- م ن . ص 190 .
43- م ن . ص 208 .